بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

عندما ظهر هذا الكتاب فى طبعته الأولى منذ سنوات استقبله بعض الأدباء بالرضا والارتياح ، وأزجوا إلىّ التهنئة خالصة والشكر جزيلا ، لأنهم وجدوا فيه — على حد قولهم — دراسة واعية منصفة بريئة من التحيّف والهوى ، وكان القصد منها خدمة الحق والأدب والفن جميعاً .

واستقبله البعض الآخر — وهم بحمد الله قليل — بالسخط والازورار ، ووجهوا إلىّ سهاماً من النقد المتهافت الخالى من الموضوعية ، واعتدّونى — وأنا أستاذ جامعى كما يقولون — رجلا أبغى الشهرة والالتماع على أنقاض صرح شامخ ظلّ قائماً فى تقدير المتأدبين عشرات السنين .

ولكنى أقرر — فى غير ما تحفظ أو احتياط — أننى مقتنع كل الاقتناع بما جاء فى هذا الكتاب من آراء وأحكام ، لأننى لم أصدرها إلا بعد دراسة مستأنية عميقة مستمدّة من شعر الرجل وحياته وسيرته والظروف التى اختلفت عليه . وبذلك أعطيتُ الرجل حقه فى غير بخس ، ووضعته فى مكانه الخليق به . وحسبى أن أكون راضياً مستريح الضمير .

وإنى لأرجو — ملحّاً فى الرجاء — أن يكون نقد هؤلاء الناس موضوعيّاً ، تكون غايته الخير والحق والوصول إلى الحقيقة .

أما الابتهار والتصدّى فلا طائل منهما . . . والسلام على من اتبع الهدى .

عبد الحميد سند الجندى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

عُهد إلىّ أن أقوم بدراسة شخصية أدبية معاصرة لطالبات الليسانس بقسم اللغة الإنجليزية بكلية البنات بجامعة عين شمس ، فنثرت الكنانة بين يدىّ واصطفيت شخصية كنت أحس لها فى قرارة نفسى منذ أن تمزّزتُ طعمَ الأدب بشىء غير قليل من العطف المقرون بالتقدير والإشفاق .

وسِرّ ذلك أن « شاعر النيل » قاسَى فى فجر حياته ضروباً مختلفة من الحرمان وألواناً شتّى من البؤس والمتربة . هذا إلى ما وَقر فى أذهاننا من أنه كان لسانَ صدق للشعب ، يعبر عن آلامه وآماله ، ويرسم له سبيل الوصول إلى حياة حرة كريمة .

من أجل ذلك كنا نشعر – نحن شباب العلم – بأن حافظاً قريب إلى نفوسنا ، محبب إلى قلوبنا ، نجد فى قراءة شعره ما يلذ عقولنا ويَقرى نفوسنا أنساً وإمتاعاً . وزادنا إقبالا على شعره ما كنا نحسه فيه من ديباجة مونقة وغور قريب لا يكدّ الذهن ولا يعنّى الفكر .

وكنت إبان الطلب أجد فى نفسى رغبة مُلِحّة فى دراسة هذا الشاعر دراسة عميقة ، ولكن كان يحول بينى وبين ذلك ما يشغل طالب الجامعة من درس وتحصيل .

ثم انغمرتُ فى خضمّ الحياة بعد الانتهاء من دراستى الجامعية ، وران على علاقتى بحافظ رُكام كثيف من النسيان كاد يجبّ ما بينى وبينه من وثيق الصلة .

وتطرّحت السنون وعُينتُ مدرساً بكلية البنات ، فلم تكد تسنح الفرصة حتى اهتبلتها فى غبطة وجذل لأحقق أمنية كانت تراودنى منذ أمد بعيد .

فأخذت أقرأ شعر الرجل مستأنياً ، وأقرأ كل ما كُتب عنه قراءة متئدة ، فتبين لى بعد ذلك أن حافظاً قد خدعنى عن نفسه ، وأنه قد عزّب عنى الكثير من حقيقة فنه وشخصيته . وتبين لى كذلك أنه لم يأخذ حظه من الدراسة المفصلة الصادقة كصنوه شوقى ... فقد كُتبت عن حافظ بضعُ مقالات وصدر فى دراسته قليل من الكتب ، ولكن ذلك لم يكن لينقع لنا غلة ، لأن الكثير منهم كانوا يسرفون فى إطرائه إسرافاً لاحدّ له ، حتى لقد غلا البعض فجعله زعيم شعراء العربية . وهاجمه آخرون هجوماً فيه عنف وفيه شدة .

ولعل أعرف المؤلفات التى وُضعت عن حافظ المقالات الرائعة التى دبجتها يراعة أستاذنا عميد الأدب الدكتور طه حسين ، ولمّ شتاتها فى كتاب سماه « حافظ وشوقى » . ولكنى أستشف منه ميلا إلى حافظ وتحاملا على شوقى .

ثم شاءت وزارة المعارف أن تجمع شعر حافظ ، فتجرّد لهذا الأمر أستاذنا الجليل المرحوم الدكتور أحمد أمين وزميلاه المرحوم الأستاذ أحمد الزين والأستاذ إبراهيم الإبيارى . وقد صدّر الدكتور الديوان بمقدمة طويلة تناول فيها حياة الشاعر وشعره . وهذه المقدمة يجد الباحث العجل بعض بغيته فيها ، ولكنها على كل حال ليست بذات غناء كبير .. وليس من ريب فى أن الظروف السياسية التى كانت تختلف على البلاد آنذاك هى التى دفعت المرحوم الدكتور إلى أن يُعلى من شأن الرجل فى غير احتياط وأن يردّ عنه كل شبهة . وكان ذلك فى غضون عام ١٩٣٧ .

وقبل ذلك بسنوات خصّص الشاعر المرحوم الدكتور أحمد زكى أبو شادى عدداً من مجلة « أبولو » (يوليه سنة ١٩٣٣) فى حافظ ، وقد توخى كثير من الأدباء الذين اشتركوا فى تحرير هذا العدد بعض الصدق والإنصاف ، ولكنهم لم يبلغوا من ذلك ما كنت أروم . بيد أن بعضهم ممن اتصل بحافظ قد أظهرنا على

كثير من طباعه وصفاته ، وبخاصة المرحومان الشيخ عبد الوهاب النجار والأستاذ إبراهيم دسوقى أباظة .

وفى عام ١٩٤٧ أصدرت دار المعارف عدداً خاصًّا من مجلة « الكتاب » بمناسبة مرور خمسة عشر حولا على وفاة الشاعرين الكبيرين . وهذا العدد من أقوم ما كُتب عنهما ، وقد وجدت فيه كثيراً مما كنت أبتغى ، وأعجبنى أن هؤلاء الأدباء الأفاضل كانوا يرعون الحق بقدر ما جهدوا ، إذ كان يحدوهم إلى ذلك سلامة النية وسواء القصد .

وفى العام نفسه صنع الأديب الفاضل الأستاذ حسن كامل الصيرفى كُتيِّباً صغيراً قدّم لنا فيه دراسة رصينة هادئة عن الشاعرين ، بريئة من التحامل والهوى ، ولكنه ترك أموراً كانت خليقة بالدرس والاستقصاء .

ثم ظهر بعد ذلك كتاب فى سلسلة « اقرأ » للأديب الدكتور سامى الدهان اسمه « شاعر الشعب » ، كله — من أوله إلى آخره — دفاعٌ حارٌ عن حافظ وتمجيد لشعره .

وعلى عكس ذلك ما فعله المرحوم الأديب الكبير إبراهيم عبد القادر المازنى ؛ فقد نشر فى أوائل هذا القرن بضع مقالات فى صحيفة « عكاظ » كانت كلها هجوماً عنيفاً على حافظ ومحاولة للنيل منه والحط من قدره .

ومنذ بضعة أشهر أصدر الشاعر الأديب الأستاذ أحمد محفوظ كتابه « حياة حافظ إبراهيم » . والأستاذ محفوظ اتصل بحافظ عن كثب ولازمه وتلمذ عليه واشتغل معه فى القسم الأدبى بدار الكتب ، فوقف بذلك على الكثير من طباعه وسجاياه وعاداته . وهذا الكتاب يُعنى بحياة حافظ عناية طيبة كما يفهم من عنوانه . وقد كشف لنا المؤلف عن كثير من حياة الرجل الخاصة ، وأتحفنا بقدر لطيف من فكاهاته ونوادره التى تنمّ عن بديهة حاضرة وخاطر سريع وذكاء لمّاح . ولم ينس أن يُفرد فى نهاية الكتاب فصلا عن « فن حافظ » ينبىء — على إيجازه — عن فهم دقيق لشعر الرجل . وهذا الكتاب

خفيف الروح لطيف المحمل ، لا تكاد تقرأ السطر الأول منه حتى تتوق نفسك إلى أن تأتى عليه . وقد أفادنى كثيراً فى الوقوف على حياة حافظ وخلقه ومواهبه وعلاقاته بمرءوسيه ورؤسائه وصلاته بعلية القوم ورجالات الدولة.

وخصّ أستاذنا الكبير عباس محمود العقاد حافظاً بمقال فى كتابه « شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى » . وهذا المقال فيه عمق خصيب تعودناه دائماً من الأديب العظيم فى أبحاثه الأدبية . وفى الكتاب دراسة طيبة عن الشاعر « محمود سامى البارودى » أستاذ حافظ الأكبر ومثله الأعلى . وكانت هذه الدراسة خير معوان لنا — إلى جانب المصادر الأخرى — فى إزجاء صورة صادقة عن رائد الشعر العربى فى العصر الحديث .

ووضع الأستاذ « روفائيل مسيحة » كتاباً عن « حافظ إبراهيم الشاعر السياسى » تناول فيه شعر حافظ الذى يتصل بالسياسة ليس غير . وأول ما يبدهك فى هذا الكتاب أن الباحث قد تجرّد للدفاع عن مواقف حافظ إزاء الأحداث السياسية فى غير ما تحفظ ، محابياً للشاعر محاباة صارخة .

وهناك المقالات التى كُتبت عن حافظ وجمعها الأديب الدمشقى السيد أحمد عبيد مع ما كُتب عن شوقى فى كتاب سماه « ذكرى الشاعرين » . وكذلك المقالات القيمة التى كتبها عنه الضابط الأديب السيد أحمد الطاهر ، ولكنه نحا فيها نحواً آخر لا تفيد منه الدراسات الأدبية الخالصة كثيراً .

هذا — فيما أعلم — هو كل حظ حافظ من الدراسة . وأنت ترى أنه لم يوضع عنه كتاب جامع يتناوله بالدراسة المفصلة العميقة المستقيمة على غرار الكتاب القيم الذى ألفه صديقنا الأديب الباحث الدكتور شوقى ضيف عن « شوقى شاعر العصر الحديث » مثلا . فهذا الكتاب يعتبر — فى نظرى — من خير الدراسات الأدبية التى تمتاز بالعمق والخصب والنزاهة .

وقد أردت أن أضع عن حافظ كتاباً يقوم على الدراسة المستفيضة التى سَداها الإنصاف ولُحمتها الصدق . وقد بدأته بالحديث عن نشأته وحياته بقدر

ما أسعفتنا المصادر التي وقعنا عليها ، وعُنيت بنوع خاص بالنواحي البليغة الأثر في اتجاهاته الفنية ، معززاً رأيي بشواهد من شعره . وقد أفادني كتابه المسمى « ليالي سطيح » في تبيان الأحداث التي لابسته وموقفه منها موقف المتوجس المذعور في الغالب ، وما كان يتناوش نفسَه الحطيمة من يأس غامر في الحقبة التي قضاها في السودان . ووقفتُ منه كذلك على مدى ما كان للمستعمرين الإنجليز آنذاك من بطش قاهر يُخمد الأنفاس .

ثم تحدثت عن مصادر ثقافته المتنوعة من كتب ، وصحف ، ومجالس كانت تنتظم خيرة أساتذة ذلك العهد . ووجهتُ عناية خاصة لأستاذين عظيمين كان لهما أثر بارز في فن حافظ وثقافته ، وهما الشاعر سامي البارودي والإمام المصلح الأستاذ محمد عبده . وقد قدّمتُ لكل منهما ترجمة موجزة مبيناً مبلغ تأثر تلميذهما بهما .

ثم تناولتُ بعد ذلك شعره ، فتحدثتُ عن خصائصه ومقوماته ، وأفضتُ في الكلام عن فنونه المختلفة ، وما برّز فيه منها وما وقف منها عند السفح . وقد حرصتُ على أن أردّ ذلك إلى علله الأصيلة ؛ المكتسبة منها والمركوزة في فطرته . وكنت جدّ حريص على أن أقتنص كل نُهزة لأقارن بينه وبين زميله شوقي في الفنون المماثلة ، وبخاصة القصائد التي قيلت في مناسبة واحدة ، لأن الفرص فيها تكون متكافئة بين الشاعرين ، وبذلك نستطيع الحكم بينهما مُقسطين . ثم رأيت أن أعقد فصلا خاصًّا للمقارنة بينهما في شيء من الإسهاب إجزالا للفائدة ، ولهذا قرأت شوقيات أمير الشعراء قراءة فاحصة ، كما قرأت كل ما كُتب عنه . واستخلصتُ من ذلك كله أحكاماً أدنى إلى القصد وأقرب إلى الصواب .

وقد تبين لي من دراسة الرجلين أن كثيراً من الأمور قد خلقت من شوقي شاعراً فذًّا لم يستطع حافظ أن يلحق به . فقد كان لنشأته بين أكناف النعمة أبلغ الأثر في خياله واتجاهاته الفنية . هذا إلى أنه قد وجد في مؤتنف شبابه

أستاذاً له يستهديه فيهديه ويسترشده فيرشده ، وهو الشاعر الرقيق الذوق المرهف الحس « إسماعيل صبرى » . فكان شوقى يعرض عليه شعره فيبصّره بكل غميزة يجدها فيه ؛ من لفظة قلقة أو معنى متهافت أو صورة سوقية . فاستقل عنه وبزّه وشآه .

يضاف إلى ذلك أنه ملأ جعبته بالثقافة العربية المختلفة الطعوم ، وبأمشاج قوية من الثقافات الأجنبية المتعددة الألوان . وقد نضح ذلك على أفكاره ومعانيه واتجاهه الفنى .

أما حافظ فلم يكن له من ذلك شىء كثير . . . كان رقيق الحال ضنك المعيشة ، فحُرم الخيال الخصب والصورة الرائعة والجو الشعرى الرفيع .

ولم يكن حافظ يعتبر الشعر فنًّا يُدرس ويُتلقى على أساتذة . وكل ما صنعه أنه كان يقفو أثر البارودى فى فحولة العبارة وإشراق الديباجة .

نعم كان يعرض شعره أحياناً على كبار شعراء ذلك العصر وأدبائه ، ولكنه لم يكن دائباً على ذلك دءوب شوقى ، بل إنه كان يجعل نصائحهم فى بعض الأحيان دَبْرَ أذنه ودون رأيه . وثقافته تكاد تكون عربية خالصة ، تعتمد أكثر ما تعتمد على كتب الأدب واللغة والأخبار ، وقد اختزن فى حافظته منها قدراً ضخماً . ووقف على بعض المعارف العربية الأخرى كالفلسفة والتاريخ والمذاهب الفكرية ، ولكنه لم يكن يتعمقها . ولهذا كان أخص ما يمتاز به شعره أنه كان ذا مسحة عربية صريحة .

بيد أن حافظاً سبق شوقى فى فنين اثنين هما الرثاء ووصف الكوارث ، وسر ذلك أنه كان يحس بالفجيعة فى أعماق نفسه بسبب ما عاناه فى حياته الأولى من عنت الدهر وقسوة الأيام . فضلا عن أنه كان رجلا يألف الناس ويتألّفهم ويُخلص الود لهم ولا يستبقى من صلاته بهم إلا الوفاء والخير .

وأخيراً ختمتُ الكتاب بالحديث عن نثر حافظ وما تركه من آثار غير الديوان لتكون الصورة أدق والفائدة أعم .

وأحب أن أقول إنني قد تحريتُ الدقة في الاستشهاد ، محترزاً من المغالطات التاريخية التي وقع فيها غيري عن قصد أو عن غير قصد .

* * *

وبعد ، فهذا جهد متواضع أقدمه للمكتبة العربية ، ولست أدّعي فيه بحثاً مثاليًّا بريئاً من المغامز . وحسبي أنني توخيت الصدق والإنصاف ما وسعني ذلك ، مبتغياً أن أردّ الحق الذي حلحله غيري إلى نصابه . فإن أصبتُ فهذا ما أرومه راحةً لنفسي ، وإن كان الأمر على غير ذلك فلي جزاء المخلصين ، ولكل امرئ ما نوى . والله تعالى يهدينا سواء السبيل .

مصر الجديدة في ٢٢ مارس سنة ١٩٥٩

عبد الحميد سند الجندي